رابندرانات تاجور

كتاب جمعه وعلق عليه الأستاذ محمود المنجورى. كتاب كبير بموضوعه لا بحجمه.. كتاب يعطى «النموذج» للإنسان. وهذا النموذج نسميه «القدوة».. «المثال» نسميه «المرفأ» و «المينا».. تحت أى اسم من هذه الأسماء أو هذه الأسماء جميعا، نحن فى هذه الأيام بالذات، فى أشد الحاجة إلى أديان الشرق، وفلسفات الشرق..

ليست دعوة إلى مجانبة حضارة من الحضارات.. ولكن حضارة الغرب بكل التكنولوجيا، أفلست أن تطب لروح الإنسان.

زار تاجور أوربا وأمريكا سنة ١٩٢١ فقال عنها يوم عاد (إنها حقا مدينة ترقص فوق البركان). وقال:

(إنى مشفق على كنوز هذه المدنية الغربية.. ومن الواجب إنقاذها مما هى فيه من أثره وأنانية، يجب أن تسودها الروح، وألا يندفع الشباب فى عصبية مهلكة وراء العقائد والآراء الهادمة).

(وبعد أكثر من نصف قرن فطن أهلها إلى هذا المعنى الذى سبق إليه «تاجور» فأدان المدنية الغربية، المؤرخ العالمى «ارنولد توينبى» و «برتراند راسل» حتى «اينشتين»

ولد تاجور فى مدينة كلكتا سنة ١٨٦١م وكان أبوه ناسكا متعبدا له منسك بالغابة فى حضن الطبيعة.

شب «تاجور» فى رعاية أمه ولكنها لم تلبث أن توفيت فكانت وفاتها، الصدمة الأولى والكبيرة فى حياته.

والحرمان عند بعض الناس يخلف جروحا ونقمة ولكن «تاجور» كان من صفاء النفس بحيث شفه الألم وصهره فصار أشد نقاء.

لاذ «تاجور» بأم أخرى هى الطبيعة.. خرج من الفجيعة إلى الطبيعة. وقد سجل تاجور هذه التجربة المبكرة فى رسالة إلى صديق له جاء فيها:

لم ألبث أن حرمتني الأيام من أمي وأنا حدث صغير فأصبحت وحيدا بالدار، آوى إلى نافذته، أرقب الطبيعة فارتسمت في أخيلتي ما يجول بالعالم من صور شتى، لقد كانت لي الطبيعة الرفيق الذي لازمني والذي وجدته جواري دائما. إني لا أعرفه حقا ولكنه رفيق مخلص علمني كل شيء.

أرسل تاجور الطفل إلى المدرسة فوجد نظاما لا يتفق مع الميول الحرة للطفل.. وهنا استعلى تاجور، مرة أخرى على المحنة، إذ خلق قصور النظام المدرسي في قلبه، إحساساً كبيراً بالطفل وحاجاته فلما شب كان مربيا مجددا للطفل يعرف بالتجربة ما يجب وما لا يجب في معاملة الطفل وسأتكلم بعد قليل عن المدرسة التي أقامها للأطفال.

وقد زكت الطبيعة، الأم البديلة، لتاجور، في نفسه موهبة الأدب فنظم في حداثته، الشعر والأناشيد وكتب القصص الصغيرة محاكيا شعراء البنغال.. حتى إذا بلغ الثامنة عشرة كتب (أناشيد الصباح) و (أناشيد المساء).

وأعطى شبابه في حقل الأدب، مسرحيته الغنائية «شترا». التي اقتبس فكرتها من أساطير اللغة السنسكريتية من كتاب «المهاب هرانا».

كما استمد روح مبادئه من «اليوبانيشاد» وهي أسفار هندية جمعت تعاليم الهند الفلسفية والروحية والعقائدية والأساطير التي أملاها حكما، الهنود في جلساتهم قبل ميلاد المسيح بنحو ثلاثة آلاف سنة.

إنها (المقامات الهندية) قياسا على المقامات العربية في التسمية.

شب تاجورفي كلكتا حتى دعاه أبوه إلى القرية ليتولى أمر أرضه فيها.. وكان على مشارف الثالثة والعشرين من عمره فهيأ له هذا الانتقال والاندماج بالريف والاختلاط بأهله والاستماع إلى أحاديثهم وأغانيهم فأحس إحساسا عميقا أنه نابع منهم.. فلسفته في الحياة من فلسفتهم. حتى ليقول:

(لقد يحسب بعضكم فيما قرأ مني أني فيلسوف، وربما كان لي حقا من الفلسفة حظ ونصيب، لكن ليس حظا يفيض على شعري، ويبعث بقصائدي إلى قاع سحيق تغمره مياه المحيط

فلا يرى من خلالها إلا كما ترى الأسماك الصغيرة تائهة وسط اللج العظيم، إنما أنا ككثيرين من أهل الهند.. وفلسفتى لا تتعدى فلسفة الشعب وتلك عندى فلسفة الشاعر).

إنه الانتماء العظيم.

***

وحين بلغ تاجور الأربعين ماتت زوجته ولحقت بها ابنته الكبرى ثم امتدت الفجيعة إلى أصغر أبنائه كل هذا فى بضعة أشهر.. وهنا يبدو وجه آخر أشم من تاجور. تقصر الكلمات عن التعبير.. لهذا أترك لتاجور تصوير ما عجر عنه التصوير.

(إن عاصفة الموت التى اجتاحت دارى وقصفت زهرات أبنائى، كانت على نعمة ورحمة، قد أشعرتنى بنقصى، وبعثتنى إلى انشاء الكمال، وألهمتنى أن العالم لا يفتقد ما يضيع منه. لقد عرفت حقيقة الموت، إنه الكمال المطلق وليس من شىء فى الحياة بذاهب عبثا بل مرده إلى رحمة، تاركا العبرة نسلو بها ونفكر فيها).

لقد أدركت أننا فى هذا الوجود لم توصد علينا أبواب سجن، لقد انتزع القضاء ذخرا كان فى حوزتى ولكنى آنست فى هذا الذهاب معنى الحرية، فاقتربت السكينة من نفسى، ولم تعد الحياة تثقل على إذ الموت، رافع عبثها فى يوما ما.

هذه أنات رجل أمتحن صبره:

ياربى! إنى أسمع نداءك، جاءنى عبر البحر المجهول يحمله رسولك الأمين.

* إن الموت جاء ببابى والليل داج وقلبى خائف واجف.

* ولكنى مستقبله بمصباحى وفاتح له الباب على مصراعيه مرحبا به مقبلا الأرض بين يديه.

* إن رسولك ببابى أحييه فى خشوع ودمع فائض من عينى

* أحييه وأنا أقدم له كنوزى، وقلبى عند قدميه

* إنه سيعود إليك بعد أن أدى رسالته وأنجزها تاركا طيفا غائما فوق حياتى

* إنه لم يبق فى بيتى الموحش أحد غيرى ليقدم لك القربان يارب!

إنسانية تاجور العميقة كانت، سره.. فبها كان يحيل النقمة إلى نعمة..

* رحلت أمه فأتخذ من الطبيعة أما

* صدمه نظام المدرسة فاعتنق الايمان بالطفل

* رحلت زوجته وأبنته وأبنه فنفذ إلى فلسفة الحياة والموت.

وهى مجاهدة ينوء بها عزم العصبة من الرجال.

لقد فجر الألم الكبير فى نفسه من المعانى ماضمنه كتابه «جيتا نشالى» أى «القربان الشعرى». الذى ترجم إلى الانجليزية وكان مفتاحه إلى العالم الغربى فأحبه وأقبل على أدبه شعره ونثره.. بهرته فلسفته حتى قال عنه أحد النقاد الفرنسيين:

«إن القربان الشعرى» كأس تفيض بالفرح والأمل ومحبة الله» مستشهدا بقول تاجور:

أنت الذى أريده. أنت وحدك

أنت يارب! أنا مصغ إليك. مأخوذ ابدا، بك، فى صمت.

لست أعرف كيف أدرك أسرار إلهامك

إنى واثق فيك أيها الحق الكريم الذى أشعلت نور الحكمة فى عقلى.

ولقد قدم «القربان الشعرى» للعالم الغربى الشاعر الايرلندى الشهير ييتس» بمقدمة قلد فيها «تاجور» إمارة الشعر فى العالم فى القرن العشرين.

«ستجدون فيها أيها العشاق ترتيلا نبيلا يدنيكم من الجمال. ويقربكم»

***

لقد أعطى تاجور، فى شبابه: ديوان «البستانى» The Gardener و (الطيور الشاردة) Stray Birds و The Crescent Moon (الهلال) و (هبة العشاق والهجران) و «شترا»

***

أما الفن ، وهو من الخطوط العريضة فى شخصية تاجور، الفن فى نظره إنما هو (خلق يسمو بالحياة البشرية التى تلح عليها الآلية والمادية، وهو ينسينا نقصها وصغائرها، يخرجنا من قيود الأوضاع والعرف، والفنان هو الذى يطلق فى نفوسنا جمال الروح، ويشع فيها ادراك الحقائق).

ويعرف تاجور الجمال بأنه الفرح بالوجود، ولهذا بحثت النفس البشرية عن الجمال لتأوى إليه فى كنف الحب أو الرضا أو العبادة أو الأدب أو الفلسفة أو فى كنف هذه كلها. الجمال مجد كالبطولة والبلاغة

***

وتاجور الهندى يخالف الهنود فى الجنوح إلى الزهد والتقشف

لن أكون ناسكا يارفيقى ولتذهب بك الظنون كما تشاء

* لن أكون ناسكا إذا هى لم تشاركنى هذا النسك راضية

* لن أكون ناسكا إذا لم أوفق إلى ركن ورفيق يشاركنى نسكى إنه يحب الحياة والناس. السفر والإتصال ولقد أفادته (الرحلة) كثيرا حتى السلبيات من المرئيات اتخذ منها منطلقا. فعندما أدان حضارة أوربا، آل على نفسه بعد عودته إلى الهند أن يجدد مدرسته فى مدينة بلبور التى كان قد أنشأها للأطفال سنة ١٩٠١ وغير اسمها من (شانتى نكتال) أى «مرفأ السلام» إلى معهد عالمى سماه (فسفا بهاراتى) ودعا فيها إلى تعاليم جامعة غير ناظر إلى جنس أو دين أو لغة أو لون.

ولقد بكى تاجور عندما وصل إليه أن اليابان ضربت الصين بالقنابل وأذاع فى أكتوبر سنة ١٩٣٧ رسالة لاسلكية استنكر فيها أن تقوم أمة من الشرق تجتاح أمة شقيقة لها، وطلب إلى ساسة اليابان أن يغلبوا روح الشرق الكريم، وألا يندفعوا وراء داء الغرب الوبيل.

وما أرق رسالته إلى شاعر اليابان «يونى ناجوتشى» التى يقول فيها:

(إن الشرق فجر الضمير الإنسانى ليأبى اليوم أن تضرب اليابان المدن البريئة فى الصين وأن تقتل الأطفال والشيوخ والأشجار والحيوان بالقنابل).

(أنعم ملك الإنجليز ١٩١٥ على تاجور بلقب «سير» ولكن تاجور غضب سنة ١٩١٩ عندما شعر بأن «الانجليز قد أساءوا إلى أهل بنجاب فى مأساة «امرتسار» فاحتج لدى الحاكم الانجليزى، واعتذر عن قبول اللقب. وأظهر عطفه على غاندى وإن كان لا يتفق معه فى سياسته وقال (إن الشرق يأبى أن يؤخذ بالعنف).

زار تاجور مصر سنة ١٩٢٦ بعدما طاف ممالك أوربا فسأله المؤلف عما لفت نظره فيها فقال:

(أنا أخشى أن تنهار هذه المدينة وفيها ذخر ثقافى لا يعوض. إن أوربا تعانى تيارين قويين ومختلفين: تيار الشيوعية وتيار الفاشستية وكلاهما تيار عنيف جارف. وأنا لا أريد العنف فى أى مظهر من مظاهره).

وعن مصر قال تاجور:

(لقد بلغت مصر من الروح الإسلامى مالم تبلغه أمة إسلامية أخرى)

أقول لأن مصر متدينة قبل نزول الأديان وقد وصلت بالفطرة السليمة وبالعمق الحضارى معا إلى قيم ومفاهيم جاءت الأديان فعززتها أو على الأقل لم تنكرها.

***

كان تاجور صادقا مع نفسه وصادقا مع مبادئه التى عاش عليها، وبها فعلى الرغم من أن «تاجور» لم يكن حتى سنة ١٩٣٢ من مؤيدى المهاتما غاندى فى آرائه السياسية، إلا أنه انضم إلى غاندى عندما صام صومه الطويل، داعيا الشعب الهندى أن يلغى الفوارق بينه وبين الأجناس، وقال تاجور يومئذ:

(إن إزالة الفوارق ورفع طبقة من البشر إلى مستواها البشرى هو أعظم عمل إنسانى يدعو إليه عقل بشرى).

ولا غرو فتاجور هو القائل

* رب إله البشر جميعا
* تنزهت عن كل لون وجنس
* يامهيمنا على جميع الأمم وإن اختلفت ألوانها
* وحد بين قلوبنا، وألهمنا تبادل المحبة
* وأيدها بروح الحق والعدل.

ويتقدم بتاجور العمر وتتراكم على كتفه عقود السنين ولكنه نفسه ظلت ناضرة يانعة لا تنالها الشيخوخة. ظلت نفسه مقبلة على الحياة تمده ببهجة الرؤية فيقول وهو الذى أثخنته الجراح:

(إننا لن نفهم الحياة إلا إذا فرحنا بها، فالفرح هو سر المعرفة بالأشياء والبهجة غذاء روحى لا ينضب والفنون تعيننا على هذا الفهم دائما).

عندما بلغ تاجور، الثامنة والستين شغف بالرسم شغفا كبيرا وبدأ يعبر بالريشة وقد أقيمت لصوره معارض فى لندن سنة ١٩٣٨ فكانت شعرا ملونا ثم عرضت صوره فى برمنجهام وموسكو وبرلين وميونيخ وباريس ونيويورك.

ولحن تاجور نحو ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف قطعة تعزف على البيان وترتل ترتيلا وفيها صلوات صوفية وفيها سبحات كونية. كان يستوحى الهمس والجرس معا وينظم هذا ويلحنه فى ايلاف عبقرى.

وأغانيه تغنى فى جميع أنحاء الهند حيث يتكلم الناس اللغة البنغالية بل إن أغانيه تقرأ فى جميع اللغات الحية.

وكان فى صباه المرتل المغنى لهيكل القرية.. إذا حضر صلاة ورتلها فإن الناس يوفضون إليه ويتحلقون حوله ليروا اشعاع الروح ينبعث من جسم ناحل لصبى واسع العينين فيهما جمال وورع وخشوع.

يقول تاجور عن الموسيقى: (إن الموسيقى هى أنقى أسكال الفن، وهى أصدق تعبير عن الجمال وأقرب لغة إلى القلب.

بالموسيقى صلى

ومن سبحاته:

* ياربى. أنت الذى أريده. أنت وحدك

* لقد ذكرتك دائما فى أغان لا تنسى

* أى إلهى. أى زعيم الشعراء)

* إننى لم أجلس تحت قدميك إلا لتكون حياتى شيئا سهلا منسجما كالبراع المثقب الذى تملؤه الحياة ألحانا وموسيقى.

***

عرف تاجور، الشوق إلى اليقين وتلهف على معرفة الحقيقة الكبرى، عرف حلاوة الرضا ونور الايمان. وعرف أيضا الألم المبتهج.

أقول الألم المبتهج وأنا أعنى هذه العبارة حتى الموت وعد أن يستقبله باسما!!

«عندما يطرق الموت بابى سأقدم بين يدى ضيفى وعاء حياتى فائضا دهاقا ولن أدعه يمضى صفر اليدين.

سأهبه أشهر قطاف العمر. تمر الخريف وليالى الصيف وأحمله ما كسبت وما جمعت فى حياتى الدائبة».

ولعله أحس الدهشة فى عيون سامعيه فقال:

«إن الموت قد يبدو لنا أسود اللون كما تبدو لنا السماء زرقاء ولكن ليس لسواده صبغة حقيقية كما أن زرقة السماء ليست إلا وهما ولونا خادعا فلا تترك لونها فى أجنحة الطير».

***

تاجور منهج عملى فى التربية فأطفال مدرسته يصفهم بأنهم «كجماعات النحل- لكل جماعة رئيس ينتخب ولكن إلى أجل، ليسودها روح التعاون التام، ولهم محكمة من أنفسهم تفصل فى شئونهم اليومية وما يقع من بعضهم من مخالفة لنظمهم وتعاليمهم وسلوكهم ولا يشترك فيها أساتذة المدرسة مطلقا إلا إذا كان الأمر جد جليل وهذا فى النادر القليل.

ومن أهم المبادىء العامة ألا يتسلط المعلم على إرادة تلاميذه وألا يشعرهم بنفوذه عليهم بل يتعاون معهم على الفهم والدرس.

وليس فى المدرسة عقوبة بدنية لأن التعذيب البشرى محرم وإجرام فالعقوبة القاسية عندهم أن يقاطع المذنب فلا يلتفت إليه تلميذ أو معلم بل يهمل ويترك.. وفى هذا بلاء له ودعوة إلى التهذيب والإصلاح.

ويقول تاجور: «إنى مع أطفالى أسعد منى فى أى مكان آخر».

وقوله هذا يذكرنى مرة أخرى بالعظيم أخناتون حين كان يصف السعادة بقوله (كأنى أسمع ضحك الملكة وبناتها).

كان تاجور يعلم بنفسه الأطفال الأدب والقصص والترتيل والغناء ويثير فى نفوسهم دائما الشغف بالفنون من رسم وتصوير وشعر وموسيقى ويربطهم ببيئتهم.

***

وعدت أن أعود إلى حديث تاجور عن المرأة..

لقد فصل تاجور هذا الحديث على صورة حوار بين فتاة هندية وزوجها لقد فصل رأيه أو رغبته فيما تكون عليه المرأة أو الصورة التى يريدها لها من خلال زوج «بيمالا» يقول تاجور إن الرجل الذى يتحكم فى زوجته كالرجل (النهم الذى يحب السمك فلا يتردد فى تقطيع السمكة بأسنانه كما يشتهى. أما الذى يحب السمك الحى فيود أن يراه سابحا فى المياه).

يريد أن تكون:

(مصدر وحى ثائر وأن يهتف الناس باسمها على أنها امرأة قد خلقها الله خلق مصور فنان وألا تكون كالرجل خلق بالمطرقة السندان»

يريدها أن تقول (لا) عندما لا تريد و (نعم) عندما تريد.

يقول «إن الإرادة قد استحالت إلى شكل إنسانى فكانت فى صورة المرأة».

وبعد: فإننى لم ينل من متعتى وهنايا بهذا الكتاب إلا، خطة الدقيق الذى كان خيوطا رفيعة وليس حروفا. مع أن نصوص تاجور من حقها الإبراز والتجلى كالشمس فى إشراقها. هذه العبارات التى تعزف ألحنا.. هذه الأنغام التى تمتع ألوانا، كان يجب أن تستريح فى الظهور.. أن تتبوأ فى غير ضيق أو تضييق ليرتاح القارىء معها ويخلو إليها ويخلد إلى معانيها.

ولكن الكتاب عذره أنه طبع فى فترة الحرب العالمية الثانية (١٩٤٣) ولو كان طبع بطريقة أكثر سخاء ورواء لتضاعف حجمه وتضاعفت المتعة فن قراءته ولكن كلمات تاجور، (كالحقيقة) قد يشقى الإنسان فى الوصول إليها، ولكنه فى أعماقه وقرارة نفسه يسعد لاسيما إذ ظفر بها.. وقارىء هذا الكتاب يظفر منه بالكثير.

هذا الكتاب الصغير، مدرسة كبيرة للأطفال.. والشباب.. والكهول..والشيوخ.